سيرورة الأدب المقارن

The Process Of Comparative Literature

تحري ليلى*

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف،

(الجزائر)

Tahrileila82@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/21 القبول:2022/06/09 النشر:2022/11/16

ملخص:

أثار مصطلح الأدب المقارن جدلا كبيرا في الأوساط الأدبية و النقدية و تلبس بلبوس مدارس و تصورات منهجية اختلفت باختلاف الرؤى و التوجهات الإيديولوجية لكل مدرسة ، فمن هيمنة التصور الفرنسي الذي وضع ضوابط صارمة لهذا الحقل المعرفي و حصره في دائرة ضيقة قائمة على أساس المبادلات الأدبية و قضايا التأثير و التأثر ،إلى المدرسة الأمريكية التي سعى روادها إلى تجاوز تلك المواقف الضيقة معلنين قطيعة إبستيمية مع التصور الأوروبي، معتمدين على المزاوجة و التداخل بين الأدبي و الفني في ضوء تداخل الاختصاصات ، الأمر الذي سمح لها بنوع من الريادة ، إلى مدرسة عربية سيطر عليها التصور التاريخي الأوروبي فكانت متأخرة في استيعاب الاتجاهات النقدية الجديدة في الأدب المقارن .

الكلمات المفتاحية:أدب مقارن ؛ قوميات ؛ تأثير وتأثر ؛دراسات نقدية ثقافية ؛مدرسة فرنسية.

Abstract :

comparative literature has raised a great deal of controversy in literary and critical circles and it has been dressed up in schools and methodological perceptions that differed according to defferent visions and ideological oriontations of each school it is the dominance of the French conception which set strict controls for this fieled of knowledge and confined it to literary exchanges to the American school which sought to declare an epistimic break with the European perception based on the overlap between literary and artistic which allowed it to lead to an Arab school, that was dominated by the European historical perception and, it was a late in absorbing the new critical trends in comparative literature.

KeyWords: Comparative literature; Nationalities; impact; Cultural Critical Studies; French School.

*المؤلف المرسل

المقدمة:

ساهمت التطورات العلمية التي عاشها العالم في ميلاد علوم و ازدهار و استقلالية علوم أخرى ، وكان الأدب المقارن ضمن لائحة العلوم الحديثة التي رسمت ديناميكية أمدت أوروبا و العالم و غيرت مجرى التاريخ، ظهر بفرنسا في القرن التاسع عشر لتتسع دوائر الاهتمام به في دول أوروبية و أمريكية و حتى عربية في قرون متأخرة فظهرت المدارس الأدبية و النقدية واختلفت التوجهات باختلاف طبيعة الأدب نفسها سعيا للتخلص من الصيغ الجاهزة وانفتاحا على إشكاليات نقدية ترتبط بالحاضر و قضاياه.

وقد ساهمت عوامل كثيرة و تضافرت جهود مهدت الطريق أمام هذا الوليد الجديد الذي استطاع بفضل جهود مؤسسيه أن يشق طريقه بكل ثقة في جو مشبع بعوامل الاستعلاء و الهيمنة.

أولا: العوامل المساعدة على نشأة الأدب المقارن :مر الأدب المقارن بمجموعة من المحطات المعرفية و التاريخية التي كانت بمثابة نقطة انطلاق في إرساء معالمه و تنوع توجهاته ،كما ساعدت عوامل كثيرةكانت و ماتزال وراء الاهتمام بهذا الفرع من فروع البحث نذكر منها:

– الانتقال من الأنظمة الشمولية القائمة على نزعة الهيمنة و السيطرة و المتميزة بالانغلاق إلى الأنظمة القومية التي تركز على الذات في تفاعلها مع الآخر. لقد انتبه الأساتذة إلى أن دراسة الأدب تكون أنفع و أجدى إذا درسنا أدبا في ضوء علاقته مع الآداب الأخرى ،فقيمة الشيء لا تظهر إلا بمقارنته مع غيره، و بذلك استطاع الفكر الغربي أن يتجاوز اللحظة التاريخية و أن ينتقل من النظرة الأحادية للأدب إلى النظرة القياسية.

– التنوير وما صاحبه من تطورات فكرية أدت إلى اتساع نشاط المقارنة و أعطت حركية جديدة غيرت مجرى الأدب.

– ارتباط الأدب بالطبقة الوسطى البورجوازية من حيث المضامين و البناء اللغوي و تكون ما يسمى بالذوق الأدبي الخاص بكل قومية .

– الانفتاح اللغوي و ظهور الترجمة التي جعلت النصوص تخرج من حدودها اللغوية إلى مجالات أخرى.

– التطور العلمي و المنهجي القائم على التحليل و التعليل، و الذي أدى للانتقال من الفكر الغيبي إلى الفكر العلمي و الذي تكلل بظهور مناهج البحث في العلوم التجريبية و الإنسانية و الاجتماعية ،و كان المنهج التاريخي هو المنطلق .

كل هذه العوامل تضافرت لتشهد على بزوغ الأدب المقارن بمنهجه التاريخي القائم على فكرة المقارنة.

وفي ضوء هذه المتغيرات في بنية الفكر الغربي تغيرت النظرة للأدب فبدأ الأوروبيون يدرسون آدابهم لذاتها و في ذاتها بناءا على معاييرها الجمالية ، بدأوا يدرسون الأدب في مساراته التاريخية من حيث مكوناته الداخلية المتمثلة في اللغة ومن حيث مكوناته الخارجية المستمدة عبر محوري الزمان و المكان، و ظهرت فكرة المقارنة التي تجلت في البحث عن المكونات الخارجية عبر الصلات التاريخية الثابتة، فكان التاريخ شرطا ضروريا في الدراسة المقارنة لإثبات الصلات بين الأدباء أو نفيها ،و ظهر أول مفهوم للأدب المقارن على أنه " تاريخ العلاقات الدولية و القارئ المقارن تبعا لذلك يقف عند الحدود اللغوية للأدب المقارن و يتابع حركة انتقال الموضوعات و الأفكار و الكتب و المشاعر بين أدبين أو أكثر "(بيشوا، دس، ص75)

إن هذا المفهوم للأدب المقارن يركز على شرطين اثنين هما العلاقات التاريخية و الحدود اللغوية للبرهنة على وجود علاقات تأثير و تأثر.

I. مدارس و توجهات الدرس المقارني :

1. التوجه الأوروبي:

ظهر الأدب المقارن بفرنسا لأن الظروف كانت مواتية و التربة كانت مهيأة لاستقبال الدرس" فالفضاء الاستراتيجي لفرنسا ساعد في أن تكون ملتقى تيارات من جهة ،كما أن التاريخ التوسعي لمستعمراتها أفرز الكثير من ردود الفعل مما خدم موقع المدرسة من زاويتين هما الفضاء و التاريخ "(علوش، 1987، ص59)

ظهر التصور الأوروبي / المدرسة الفرنسية التي بسطت نفوذها في برمجة و تأطير الدراسات المقارنة مع ظهور أول كرسي للدراسات المقارنة و أول مجلة للأدب المقارن و أول مقال بعنوان الكلمة و الشيء، و تعزز مع الآباء المؤسسين لهذا الفرع الأدبي مع آبل فيلمان الذي قدم دروسا في الأدب الفرنسي 1828عالج فيها التأثير المتبادل بين إنجلترا و فرنسا و تأثير فرنسا في إيطاليا في القرن الثامن عشر"أنني أريد أن أبين وفق جدول مقارن ما أخذه الأدب الفرنسي عن الآداب الأجنبية ثم ما أسداه لها"(برونيل، 2005، ص29)

و أما جان جاك أمبير فقد قدم درسه الافتتاحي1830" إذا كان الأدب علما فهو ينتمي إلى التاريخ كما ينتمي إلى الفلسفة و لكن الوقت لم يحن بعد للاهتمام بفلسفة الأدب و الأولوية للتاريخ ،لأن فلسفة الأدب و الفنون ستنبثق حتما من التاريخ المقارن للفنون و الآداب عند كل الشعوب"(برونيل، 2005، ص29)

و أما فيلاريت شال فلم يخرج كسابقيه عن سياق التركيز على الصلات و العلاقات التاريخية بين الآداب و الشعوب في إطار التأثير و التأثر المعهود في تصور المدرسة " لا شيء يعيش منعزلا فالعزلة الحقة هي الموت، الكل يستعير من الكل ،و كل شعب يفتقر إلى تبادل فكري مع غيره يعد حلقة مفقودة في الشبكة الكبيرة"(برونيل، 2005، ص 30 ،31)

لتتعاقب الأجيال المروجة للأدب المقارن مع مارسيل باطايون،جان ماري كاري ، روني إيتيامبل،كلود بيشوا ،دانيال هنري باجو الذين تعاقبوا على كرسي الدراسات المقارنة تنظيرا و ممارسة يحدوهم هدفا واحدا هو تطوير المناهج و تعميم الدرس و محاولة إيجاد صيغة جديدة للدرس المقارني تبحث في مقولات التماثل و القرابة و التأثير، و في الوقت نفسه تعمل على تقريب الأدب من الأشكال التعبيرية الأخرى وهو ما عبر عنه بيير برونيل "أنا مؤمن بمستقبل علم الأدب المقارن و علم الأدب الأوروبي، لقد مهد براندیس ، ماكس كوخ، إريخ شميديت الطريق لهذا العلم في ألمانيا ،هـ بوزنيت في إنجلترا و إننا سنسير على الطريق نفسه"(برونيل، 2005، ص 35)

بعد فرنسا انتقل الأدب المقارن إلى سويسرا فقدم ألبير ريشار دروسا في الأدب المقارن بجامعة لوزان في إطار كرسي الأدب الحديث ،ومن سويسرا انتقل إلى جامعة نابولي بإيطاليا إلى أن وصل إلى ألمانيا التي فيها أسس فرناند جير وبول هازار مجلة الأدب المقارن 1921 وبذلك أقبلت الشعوب الناشئة على الأدب المقارن ابتداء من 1930 لاعتقادها أنه يمثل رمزا على النضج الفكري و الانفتاح الثقافي .لقد حق للأدب المقارن أن يفتخر بما قدمه من إنجازات و نجاحات على الصعيد القومي و الدولي في حقل المبادلات الأدبية .

غير أن تلك الإنجازات لم تسلم من الانتقادات فكان مؤتمر شابل هيل 1958 الذي أدى لأن تكون المدرسة الفرنسية محل انتقادات من طرف الكثير من المقارنين الذين أثبتوا عدم كفاية ذلك التوجه الوضعي القائم على مقولات التأثير و التأثر من زاوية تأثير الأوروبي في غير الأوروبي [تدعيم المركزية الغربية التي تخدم نزعة التعالي و الهيمنة ، كما وضعوا شرط اختلاف اللغة بين الآداب لتتم المقارنة، قصروا الدراسة على السياقات الخارجية و أهملوا الجوانب الجمالية للنص الأدبي ، الأمر الذي دفع روني إيتيامبل للقول بأن فرنسا ضيعت خصوصية الأدب المقارن"إن أخطر دلالة على الوضع المهتز الذي تمر به دراساتنا هي أنها لم تتمكن لحد الآن من تحديد دائرة عملها و منهجيتها ، و أنا اعتقد أن برامج العمل التي نشرها بالدنسبرجر و فان تيجيم و كاريه و غويار قد فشلت في

هذه المهمة الأساسية، فقد أثقلوا الأدب المقارن بمنهجية عفا عليها الزمن، ووضعوا عليه أحمال القرن التاسع عشر الميتة من ولع بالحقائق و العلوم و السببية التاريخية "(ويليك، دس، ص362)

إن تعلق التوجه الفرنسي بالتاريخ الأدبي وبعد حملة الانتقادات التي تعرض لها رواده و مؤسسوه ، أدى كل ذلك إلى قيام توجه آخر في مقاربة النص الأدبي سعى رواده لتجاوز المفاهيم التقليدية و الخروج بمفاهيم حداثية تبعا للتطورات التي يحياها العالم، فكان التوجه الأمريكي الذي وضع لبنات بناء قائم على أساس ثقافي منفتح.

2. التوجه الأمريكي :

بعد الدور الريادي الذي لعبته فرنسا في نشأة و تطور الأدب المقارن ،و بعد تلك التراكميات المعرفية التي أفضت إلى تأكيد وجود هذا العلم الذي تحسس طريقه بثقة في الفضاء الأوروبي و أفضى إلى مركزية غربية أساسها فرنسا ،تغيرت الظروف المتحكمة في سيرورة الأدب و تحديد مساراته الثقافية بظهور التوجه الأمريكي الذي سيحدث ثورة مفاهيمية في طرائق التعامل مع الدرس المقارني،انتقل الأدب المقارن إلى أمريكا بتصور أوروبي ،فاصطدم الأساتذة بمجموعة من القضايا الفكرية التي تخص اللغة الإنجليزية و التي هي لغة بريطانيا و ليست لغة أمريكا و كذلك اصطدموا بواقع الهجنة الثقافية التي ميزت المجتمع الأمريكي، و انتهوا إلى أن النص الأدبي الأمريكي لا يخضع للشروط المتوفرة في فرنسا ،و بعد الحرب العالمية الثانية كانت سيادة أمريكا للعالم ،و انطلاقا من مقولة أنطونيو غرامشي التاريخ يكتبه الأقوياء و المنتصرون ،حق لأمريكا أن تكيف الدرس المقارني بما يتلاءم و أوضاعها الثقافية: فأما اللغة انتقلت من إناء للهوية إلى وسيلة للتواصل ،و أما العلاقات التاريخية فهي غير مهمة لأن الواقع هو المهم ،العبرة بالنتيجة و أما الأسباب فغير مهمة ،و انطلاقا من هذا الوضع [تركيبة المجتمع، حداثة تاريخ أمريكا التي تجعل الحاضر أهم من التاريخ و الماضي] انشغل الأمريكيون بالتركيز على النص الأدبي و ليس السياقات الخارجية التي أنتجته " فجوهر الدراسة المقارنة للآداب من وجهة نظر أمريكية يكمن في تقريبنا من فهم البنى الداخلية أي الجمالية للأعمال الأدبية ،لا في حصر ما تنطوي عليه تلك الأعمال من مؤثرات أجنبية"(علوش، 1987، ص16) ليكون النص الأدبي انطلاقا من التصور الأمريكي هو محور الاشتغال، كما استطاع الأساتذة المقارنون أن يوسعوا من ميدان الأدب وذلك بالتفاعل بين الأدب و باقي الفنون في ضوء ما يعرف بالدراسات البينية التي أسقطت مقولة المنهج و التخصص و نقل المقارنون الاهتمام إلى الأدب الرسمي و الشعبي ، الأدب و الموسيقى وبذلك يكون الدرس المقارن في أمريكا قد فتح الباب نحو مناهج و آفاق واسعة.

هذا التحول العظيم الذي ظهر انطلاقا من واقع ثقافي والقائم على التنوع المهول أدى إلى ازدهار الأدب المقارن الأمريكي فكان المفهوم الذي اصطبغ به الأدب هو"دراسة الأدب بحيث يتعدى القطر الواحد و دراسة العلاقات

القائمة بين الأدب من ناحية و بين مجالي المعرفة و المعتقدات الأخرى كالفنون و الفلسفة و التاريخ و العلوم الاجتماعية والأديان من ناحية أخرى"(ويليك، دس، ص317)

لقد أعلن التوجه الأمريكي قطائع منهجية مع نظيره الأوروبي انطلاقا من المؤتمر العالمي للأدب المقارن و المنعقد بشابل هيل و الذي وضع الخطوط العريضة لصالح توجه نقدي جمالي تمحورت فيه أعمال المقارنين للتعبير عن أزمة الأدب المقارن مع روني ويليك عبر توجيه سهام النقد للمدرسة الفرنسية التي اتهمت بتغليب النزعة التاريخية و مع هنري ريماك الذي سعى إلى التركيز على النزوع النقدي للمدرسة مع ضرورة تجاوز الخلافات بين فرنسا و أمريكا لأنها لا تصب في خدمة الأدب المقارن ، فاستطاع أن يؤسس للمرتكزات و الدعائم التي قام عليها التوجه الأمريكي، و مع روني إيتيامبل الذي دك حصون المؤسسة الغربية القائمة على التمركز معلنا عن ما أسماه بشاعرية مقارنية " لقد أعلن روني إيتيامبل عن شاعرية مقارنية ،الشيء الذي فاجأ جيله و معاصريه الذين لم يكونوا ينتظرون إعلان إيتيامبل عن أن الأدب المقارن يؤدي إلى شاعرية مقارنة ، أي إلى إيضاح أن العمل الأدبي ينطوي على أنساق أساسية ينبغي أن يكون الكشف عن هذه الأنساق مطمح عالم الأدب المقارن"(علوش، 1987، ص32)

هذا وقد راجع روني إيتيامبل مفهوم الأدب المطبوع بالمركزية الغربية ، كما استطاع أن يخلخل معالم أدب مقارن تقليدي قائم على إشعاع ثقافي غربي، منطلقا من تحديد الرؤى الثقافية التي تقر بإشعاع الحضارة الشرقية على الغربية.

من تلك التصورات الثقافية التي استجدت على الساحة الفكرية ،أخذ الأدب المقارن يتحسس الطريق لطرق موضوعات جديدة لم تكن معهودة كموضوع المرأة ، الأقليات ،الاستشراق ،الدراسات الثقافية التي كانت إرهاصا أوليا لكسر مركزية النصوص الرسمية و إحلال النصوص الثقافية مع الكتاب اليساريين الذين اتفقوا على عدم كفاية المؤسسة الأدبية و نادوا بتوسيع الدرس الأدبي إلى الدرس الثقافي مع أطروحات هوركهايمر و أدورنو بمدرسة فرانكفورت و أعمال مدرسة برمنغهام التي طرحت قضايا و أفكار تتعلق بالهامش الثقافي، الثقافات الفرعية، الدراسات النسوية في ضوء تحديات ما بعد الحداثة التي كانت مساءلة نقدية للأعطاب التي وقع فيها المشروع الحداثي الذي احتكر مجموعة من الأنصاب الفكرية القائمة على فكر المراكز " فمعالم المرحلة الراهنة من معالم المعرفة الإنسانية هو سقوط النظرية الكبرى و عجزها عن قراءة العالم "(عطية،2010،ص131)

فقد جاءت ما بعد الحداثة لتسائل فاعلية الأدوار المركزية و لتعيد الاعتبار لفكر الهوامش فانطلقت من تهشيم النسق المركزي في الثقافة الغربية مع فلاسفة و مفكرين دحضوا المقولات الكبرى و احتفوا بثقافة الهامش ، التفكيك، التشظي،اللا انتماء مع تيتشه الذي عمل على تدشين حركة الفكر ما بعد الحداثي باعتباره فيلسوف التفكيك

انطلاقا من فكرة موت الإله "إن فكرة موت الإله لا تنصب على الإله المسيحي و لا على آلهة الأديان بوجه عام بل المقصود بها هو عالم ما فوق المحسوس ،و عالم الميتافيزيقا و المثل بوجه عام "(عطية،2010،ص160)

إن الإله قد مات في نظره هو موت للمتعاليات التي حكمت الفكر الغربي، تلك الثوابت و المطلقات التي فقدت دعامتها و انهارت أسسها ، فلا الميتافيزيقا و لا العقل ولا أي شيء آخر قادر على إعادة التوازن للعالم الذي يحياه الإنسان ،و بما أن تلك الأسس قد انهارت فالنتيجة هي الاحتفاء بالفكر العدمي الذي نادت به ما بعد الحداثة . لكن إذا كان ذلك الفيلسوف قد قال بفكرة موت الإله و التبشير بالفكر العدمي إلا أنه خلق إلها آخر هو ذلك الإنسان الأعلى الذي يعمل على قلب القوى و الموازين لتتحقق بذلك إرادة القوة التي تتحقق بين السيد و العبد " إن الوجود فعلا هو الحياة و الحياة فعلا إرادة و لكن الإرادة هي إرادة القوة و تقديسها " (عطية،2010،ص178)

بتلك الصورة تكون الحياة مبنية على الاستغلال و الاستيلاء على الآخرين ،فمن يمتلك القوة يمتلك الحياة و الحياة و القوة مترادفان : الحياة وجود و الوجود قوة ،هي المعادلة التي تنطلق منها فلسفة نيتشه.

و مثلما عمل نيتشه على تقويض بداهات العالم الحداثي الغربي و سقوط الميتافيزيقا التي قام عليها لصالح عالم متغير لا يخضع لأي معايير كان فرويد بدوره الذي أعلن صراعه ضد المركز / العقل " فالتحليل النفسي عنده يرفض اعتبار الشعور مكونا لجوهر الحياة، فبدل الانطلاق من الشعور ينبغي الانطلاق من اللا شعور "(تورين،دس،126)

فإذا كان المشروع الحداثي قد راهن على الانتصار لسلطة الوعي / العقل إلا أن ذلك العقل أثبت عدم فعاليته في تفسير الحقائق بعدما كشفت التجارب الفرويدية عن الجانب الآخر من الحياة النفسية اللاشعورية، فكانت أهم هجوم منهجي ضد الأنا الديكارتية الحداثية .

و كما كان فرويد ،كان فوكو بدوره الذي أدان في مؤلفاته السلطة الغربية وفكك مركزيتها و كشف عن مظاهر القمع و الإقصاء التي ميزت المجتمع الغربي،فالنزعة الإنسانية و التسامي الإنساني الذي كان من أبرز سمات المشروع الحداثي مهد بوفاة ذلك الإنسان بعدما رفع فوكو شعار موت الإنسان ، إنه الحديث عن موت النزعة الذاتية و الإنسانية في ظل عالم التقنية الذي ولد اغتراب الإنسان وألغى ذاته في عالم الحروب و التكنولوجيا فبدا الإنسان أمامها عاجزا لم يعد قادرا على الوقوف في وجهها .

لقد أكد فوكو من خلال حفره في بنية النسق المعرفي الغربي أنه نسق لا إنساني تقوم فيه السلطة بقمع الخطابات فانطلق "من أن هناك مؤسسات تمارس الرقابة على المجتمع وكل من خرج عن سلطة تلك المؤسسات يودع في أماكن الحجز التي تسهر عليها عيون الشرطة ،إنهم أولئك المجانين: المرأة التي خرجت عن قيود الأسرة ،مرضى الجذام و الأمراض التناسلية ،كل أولئك يوضعون في تلك الأماكن" (فوكو،2006،ص72)

لقد كان المشروع الذي نهضت به الدراسات الثقافية في ضوء المدرسة الأمريكية هو مشروع تعزيز ثقافة الهامش و تغيير الثقافة الراديكالية بعيدا عن التراتبية و الانفتاح على النظريات الأدبية المتشعبة، فكان التوجه الأمريكي منعطفا تاريخيا و ثقافيا حاسما في تاريخ الأدب المقارن بفعل التحولات الثقافية التي استدعت مراجعة الآليات المنهجية و تجاوز العثرات التي وقع فيها التصور الفرنسي.

التوجه الاشتراكي:

لم يكن التوجهان السابقان بمنأى عن ظهور توجهات أخرى ،فكان التوجه الاشتراكي الذي تعزز بظهور المدرسة السلافية التي بنيت على أساس إيديولوجي لأنها مدرسة خرجت من رحم الفلسفة الماركسية ،وقد ظل الأدب المقارن علما لم يعترف به في الجامعات الروسية و باقي أقطار أوروبا الشرقية إلا بعد المرحلة اللينينية و الستالينية التي جعلت منه علما محظورا و ممنوعا من الظهور"لأنه اعتبر أحد العلوم البورجوازية التي لا يجوز ممارستها في بلد يسود فيه نظام اشتراكي"(عبودة، 1999، ص281)

و قد توطدت دعائم المدرسة السلافية انطلاقا من مؤتمرات الجمعية العالمية للأدب المقارن ،فمع كبار المنظرين توضحت أسس هذا التوجه ،فكان نيهنيا غيورغي بمؤتمر بوخارست 1964 و الذي قدم مداخلته التي كانت بمثابة الإعلان الرسمي عن مبادئ المدرسة " إن الأكاديمية الرومانية للعلوم الاجتماعية و السياسية التي يعبر شبابها بدون شك عن الروح الحيوية لأعضائها و المساهمين فيها، تهنئ نفسها للاختيار الذي قمتم به لموضوع يحظى باهتمام دائم ..إن نظرتنا للعالم أي المادية التاريخية و الجدلية تتوفر على إيجابية بتشجيع و تحفيز تداول الأفكار و مقارنتها و تبادل الآراء ،علما بأن المستفيد الوحيد هو دائما الحقيقة و المجتمع و الإنسانية"(علوش، 1987، ص155)

لقد وضعت هذه المداخلة التي ألقاها نيهنيا غيورغي النقاط الهامة للتوجه الاشتراكي عبر استهلاله الحديث عن الأكاديمية الرومانية في إشارة منه إلى الدور الناشط الذي لعبته رومانيا في تنشيط الدرس المقارني ، وعبر اعتماد الفكر المادي الجدلي قوام المدرسة و فلسفتها ،ذلك الفكر الذي يدفع للوقوف عند كارل ماركس و الذي بدوره

أخذه عن هيغل الذي ذهب بأن الوعي هو الذي ينتج الواقع: الأبنية الفوقية هي التي تحدد الأبنية التحتية لكن ماركس عكسه بقلب الجدل على رأسه و القول بتأثير الأبنية التحتية على الأبنية الفوقية.

هذا و قد ألح جيرمونسكي في المؤتمر الخامس للجمعية العالمية للأدب المقارن ببلغراد في مداخلته على فكرة المشابهات بين الآداب القومية ،ذلك أن كل تشابه يلحظه المقارني بين عملين أدبيين مختلفين لا يمكن رده إلى التأثير و التأثر الذي أقرته المدرسة الفرنسية ،و إنما يمكن رده إلى التشابه الموجود بين البنى الاجتماعية، فتشابه الظروف الاجتماعية في عدد من البلدان يؤدي إلى ظهور أدب متشابه لأن تلك الظروف هي من يتحكم في سيرورة الأدب.

و قد عمد المنظرون الذين تعاقبوا على هذه المدرسة إلى تناول موضوعات لطالما استبعدت من دائرة العمل المقارني و خاضوا في مسائل تتعلق بالآداب الشعبية ،الآداب الشرقية ، لتتدعم هذه المدرسة بحقل الدراسات الثقافية الذي فرض نفسه في أمريكا ليعم باقي بلدان العالم.

بتلك الصورة التي تعددت فيها آراء المتداخلين و الباحثين في حقل الدراسات المقارنة، أبانت المدرسة عن ديناميكيتها و مقدرتها عبر طرحها للعديد من القضايا و الموضوعات التي تخدم الأدب بصورة عامة ،و عبر تبادل الآراء و تعارضها أحيانا و هو تعارض يخدم الحقيقة و المجتمع و الإنسان.

3. الجهود العربية في الدراسات الأدبية المقارنة :

قام الأدب المقارن في أوروبا على أساس دراسة المبادلات الأدبية بين الآداب القومية ، فكان تاريخ الدراسات المقارنة الغربية هو تاريخ التجارة التثاقفية بين أدب و أدب آخر ، و بالعودة إلى تاريخ العرب عبر العصور فإنهم لم يكونوا بمنأى عن تلك الحركة التفاعلية ، و بالتالي فإنه من الضرورة بما كان أن نقر أن التاريخ العربي بدوره هو تاريخ تقبل الآخر في إطار ما يسمى بالمواطنة العالمية التي تذيب الحدود و الفواصل بين القوميات ، و يعد العصر العباسي هو الذي عبر عن ذلك التواصل و التلاقح الفكري ، فقد عرف حركات ثقافية بفضل التداخل بين الأمم وذلك التداخل بين العناصر الوافدة و الأصيلة في إطار الدور الإيجابي و الحركة التنافسية التي تمد الأدب بالجديد ، فلم يجد العرب حرجا في أن يتأثروا بالعناصر الدخيلة من منطلق الوعي بالذات ،و من منطلق الثقة التي مركزت الذات العربية و جعلت الثقافات الأخرى ثقافات محيطة بذلك المركز، فلقد شجع المناخ العام للعصر بتقلباته السياسية و تياراته الحضارية المختلفة على ثقافة الأخذ و العطاء في ظل الإشعاع الثقافي الذي تميز به العرب و الشرق على العموم ، وهو الأمر الذي لم ينكره المستشرقون أنفسهم فمع زيغريد هونكه كان الاعتراف بفضل الثقافة الشرقية " لا بد أن تأخذ العدالة مجراها و ترد حقوق شعب حرمه التعصب الديني كل تفكير و حط من قدر أعماله الفائقة ، و حجب النور عما قدمه لحضارتنا" (هونكه، 1993، ص12)

وبعد تلك المحطة من المحطات الزاهية في تاريخ الأدب العربي و علاقاته مع غيره ،جاءت حملة نابليون التي أحدثت رجة في التاريخ العربي بمدارسه الفكرية و السياسية و أدت للشعور بمركب النقص، فكان الارتماء في حضن الآخر المتفوق ، وقد ذهب إدوارد سعيد إلى أن تلك الحملة أدت إلى تحريك نوازع بين الشرق و الغرب ما تزال تسيطر على المنظورات الثقافية و السياسية ،إنه المنظور الاستشراقي، فكانت البلاد العربية مسرحا لتنامي الدراسات الاستشراقية التي تدعمت بآراء فكرية لدارسين غربيين أعطوا حق الوصاية على ذلك الشرق من منطلق العجز الفكري و السياسي "فكان الاستشراق أسلوبا للخطاب تدعمه مؤسسات و مفردات و بحوث علمية و صور و مذاهب فكرية و بيروقراطيات استعمارية"(سعيد ، 2006، ص44)

و بذلك كان الإنشاء الاستشراقي قد تشكل في إطار معطيات قائمة على المعاينة الغربية للشرق في إطار القوة و السلطة و الفوقية " فالاستشراق هو وعي سيطرة الذات الغربية و إنشاء يبرر مشروعية هذه السيطرة ، إن الغرب ينسج صورة ذاته و الآخر من مادة تسلطه "(فراج ،د س،ص159) ، و لما كان كذلك فقد نهضت الدراسة التي قام بها إدوارد سعيد على الحفر في البنى النسقية المضمرة خلف الخطابات الغربية و تفكيك آلية التمثيل الثقافي المعتمد من طرف الدراسات الاستشراقية و زحزحة رؤاها و تفكيك سردياتها في قراءة مضادة أطلق عليها القراءة الطباقية "فالاستشراق لم يكتب ليكون سردا تجريديا لعملية تاريخية،بل ليكون تحررا من الصور النمطية ومن الهيمنة على ناسي سواء أعربا كانوا أم مسلمين أم فلسطينيين " (سعيد،2008 ،405)

لقد كان إدوارد سعيد"واحدا من القامات الفكرية التي تضاف إلى رصيد الثقافة العربية التي فضحت المشروع الغربي، و كشفت عن آليات الهيمنة بين السيد و العبد وكرست خطابا مضادا قائما على أساس المواجهة و الحد من التمركز الذي نسبه الغرب لنفسه "فكانت الكلمة في هذه المرة هي السلاح لا الجسد الليلي و كأننا نخرج من ثنائية شرق ،غرب ، رجولة، أنوثة إلى مرحلة الرشد العقلي " (فراج، د س، ص228)

و في إطار هذه التراكميات التاريخية و المعرفية لم يجد العرب حرجا في أن يأخذوا عن الغرب الذي فاقهم علما فكانت بداية الدراسات المقارنة مع رواد النهضة الذين ركزوا على دراسة التشابه و الاختلاف بين الأدبين العربي و الغربي مع رفاعة الطهطاوي و أحمد فارس الشدياق و يعقوب صروف .وأما التأليف المنهجي في الأدب المقارن

فكان مع نجيب العقيقي في كتابه "الأدب المقارن" 1948 و عبد الرزاق حميدة "في الأدب المقارن و إبراهيم سلامة "تيارات بين الشرق و الغرب خطة و دراسة في الأدب المقارن"

و ظلت هذه الدراسات سطحية إلى أن ألف غنيمي هلال كتابه "الأدب المقارن" الذي أرسى فيه دعائم أدب مقارن عربي مؤكدا فيه على دراسة الأدب في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب "و بذلك يكون الأدب المقارن هو دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجة عن نطاق اللغة القومية التي كتب بها " (هلال، 1987، ص12)

وقد حاول غنيمي هلال من خلال مؤلفه استنبات المفاهيم الغربية في الفضاء العربي، فكان تحت تأثير التوجه الفرنسي متجاهلا مجموع التغيرات الحاصلة على الساحة الأدبية وانفتاح المدارس العالمية على اتجاهات جديدة . وهو ما دفع علي شلش للقول بأن التجربة العربية مازالت واقعة تحت سيطرة التجربة الفرنسية وفي حاجة إلى مزيد من التأمل في ماضي التجربة المقارنة و حاضرها.

لنقف بعد هذه المرحلة التأسيسية للأدب المقارن العربي عند مرحلة الترويج للدرس المقارني و التي مهدت لها دراسات محمد عبد المنعم خفاجة و حسن جاد، و التي اتسمت بإعادة عمل الرواد المؤسسين الأوائل من حيث الاندماج في تاريخية المدرسة الفرنسية و التركيز على علاقات التأثير و التأثر، لتتوج المرحلة بظهور مجلتين شبه متخصصتين هما الدراسات الأدبية لمحمد حمدي الذي اعتمد على تاريخية العلاقات بين الأدبين العربي و الفارسي و مجلة الدفاتر الجزائرية و مديرها جمال الدين بن الشيخ المتشبع بالفكر الاشتراكي تأثرا بتيار المدرسة السلافية ، حاول رغم صدور المجلة باللسان الفرنسي أن يعيد الاعتبار للآداب العربية داحضا حصون التمركز الغربي في سياق تلك العلاقة المختلة بين الذات الغربية و الشرق، كما حاول فتح التراث الأدبي العربي على أسئلة المنهج الحديث.

ليعرف الأدب المقارن عند العرب رشده و حركيته بإدماجه في مقررات التعليم الجامعي و كثرة التآليف و مناقشات الماجستير و الدكتوراه ، و هي المرحلة التي تضعنا أمام النقاشات المنهجية التي عرفها هذا الحقل المعرفي، و التي توجت بدخول العرب في المحافل و المؤتمرات الدولية .

خاتمة:

. إذا كان القرن الثامن عشر هو الذي مهد لنشأة الدراسات المقارنة في الغرب فإن القرن التاسع عشر هو الذي أخرج الأدب المقارن إلى حيز الوجود بفعل عوامل تضافرت لتجعل منه رمزا للنضج الفكري و الثقافي و لتجعل من أوروبا مسرحا لتنامي و تدعيم المركزية الغربية.

. يعود الفضل في نشأة الأدب المقارن إلى فرنسا التي هيأت المناخ لنمو الدراسات المقارنة مع الجيل الأول من الرواد الأوائل لتتعاقب الأجيال على كرسي الأدب المقارن يحدوها هدف واحد هو التطوير في مناهجه و آلياته .

. قام التوجه الأوروبي للأدب المقارن على أساس جملة من الشروط التي تتماشى و الوضع الفرنسي متجاهلا أوضاع القوميات الأخرى التي لا تتشابه أوضاعها مع فرنسا ، وهو الأمر الذي أدى إلى انسداد الآفاق المعرفية التي قام عليها التصور الأوروبي الذي كان عرضة للنقد و المساءلة .

. وسعت المدرسة الأمريكية في مفهوم الأدب المقارن تماشيا مع الوضع الثقافي الذي تحياه ،مما جعل المدرسة تنفتح في طرح قضايا و موضوعات فتحت عوالم فكرية رحبة تتماشى و التوجه الحديث الذي راهنت عليه.

. رغم الانتشار الجغرافي للأدب المقارن في الوطن العربي إلا أنه اتسم في بداية عهده بطابع التأثر بمنجزات المدرسة الفرنسية المحصورة في العلاقات التاريخية الأدبية المتبادلة ،لينفتح فيما بعد على قضايا وموضوعات المدرسة الأمريكية المتعلقة بالهجنة الثقافية و الدراسات الثقافية و الدراسات البينية .

قائمة المراجع:

1. كلود بيشوا: ما الأدب المقارن ، ترجمة : غسان السيد، منشورات دار العلم، ط3.
2. سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، المغرب،ط1، 1987.
3. بيير برونيل،أ م روسو، كلود بيشوا :ما الأدب المقارن؟ ،ترجمة: عبد المجيد حنون،نسيمة م عيلان،عمار رجال،منشورات مخبر الأدب العام و المقارن،جامعة باجي مختار،عنابة،2005.
4. رينيه ويليك: مفاهيم نقدية، ترجمة: محمد عصفور، المجلس الأعلى للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.
5. سعيد علوش: مكونات الأدب المقارن في العالم العربي،الشركة العالمية للكتاب،لبنان،ط1، 1987 .
6. أحمد عبد الحليم عطية:نيتشه و جذور ما بعد الحداثة،دار الفارابي،بيروت،ط،2010
7. ألان تورين:نقد الحداثة،ترجمة:عبد السلام الطويل،إفريقيا الشرق،المغرب
8. ميشال فوكو:تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي،ترجمة:سعيد بنكراد،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط1، 2006.
9. عبده عبود: الأدب المقارن و الاتجاهات النقدية الحديثة، مجلة عالم الفكر، العدد الأول ، سبتمبر 1999.
10. زيغريد هونكه: شمس العرب تشرق على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا، ترجمة: فاروق بيضون و كمال الدسوقي، دار الجيل، بيروت، ط8، 1993.

11.إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني،رؤية للنشر،ط1 ، 2006.
12.إدوارد سعيد:السلطة و السياسة و الثقافة،ترجمة:نائلة قلقيلي حجازي،دار الآداب،بيروت،ط2008،1.
13.عفيف فراج:ثنائية شرق غرب في مرايا فريديريك هيغل،برتراند راسل،بول كنيدي،روجي غارودي ،إدوارد سعيد،جيلبير الأشقر،دار الآداب، بيروت.
14.غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة ، بيروت،1987.